سُورَةُ الماعُون

obeikandl.com

obeikandl.com

عرض ودراسة

تَرْسم هذه السورة فى وضوح صفات الكافر أو الكفار وصفات المنافقين ، فالكافر لا يصدِّق بالجزاء فى الآخرة ، فَظٌّ غَلِيظٌ يَنْهَرُ اليتيمَ ويدفعه عن حَقِّه معنِّفاً به ، ولا يَرْفُق بالمسكين ولا يحثُّ على إطعامه . أما المنافقون فلهم أشد العذاب ، إنهم يُعْلنون الإسلام بألسنتهم ، ويُصَلُّون رِياءً ونِفاقاً ، وهم يبطنون الكفر وعِداء الله ورسوله ، أَشِحَّةٌ على الخير لا يقدِّمون أَىَّ عَوْنٍ لغيرهم ، بينهم وبين مجتمعهم انفصامٌ تامٌّ . والقُرْآن يَقْرن فى آياتٍ كثيرة بين المنافقين والكافرين مثل آية سورة النِّساء : (إِنَّ اللهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعاً) . واختلف المفسرون هل السورة مكية أو مدنية ، والأرجح أنها مدنية ، لأن المنافقين لم يصبحوا ظاهرة خطيرة يناهضها الإسلام إلا فى المجتمع المدنى .

(أَرَأَيْتَ الَّذِى يُكَذِّبُ بِالدِّينِ) :

(أرأيت) معناها أعلمت وعرفت حقيقة المكذب بالدين . وأصل معنى الدين الجزاء والعادة والشأن ، واستخدمه القرآن بمعنى الملة مطلقاً كما فى آية سورة البقرة : (لَا إِكْرَاهَ فِى الدِّينِ) ، وبمعنى الإسلام مضافاً أو موصوفاً مثل آية سورة التوبة : (هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ) ، وآية سورة الروم : (ذٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ) ، وبمعنى الجزاء يوم القيامة وما يرتبط به من الثواب والعقاب مثل آية سورة الذَّاريات : (إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ) ؛ يقول ، جَلَّ شأنه ، للمشركين متوعِّدًا منذرًا : إن

كل ما توعدونه من البعث والحساب لصادق ، وإن الجزاء على الأعمال لكائن وواقع لا محالة . وهذا المعنى الأخير يَرْجُح فى فهم المراد بالدين فى الآية الكريمة لسبب مهم ، وهو أن كلمة الدين كلما ذكرت فى القرآن مع كلمة التكذيب لم تُفِدْ سوى معنى الجزاء كما جاء فى سورة الانْفِطار ، ردعاً للكفَّار : (كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ) وفى سورة التِّين : (فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ) . وفى ذلك ما يدلّ دلالة واضحة على أن المراد بالدين فى الآية الجزاءُ يوم القيامة . وطبيعىٌّ أن مَنْ يؤمن به يؤمن بالشرائع السماوية وما جاءت به من وحدانيّة الله والمعاد والكتب والملائكة والرسل والنبيين . وقد جمع القرآنُ فى مواطنَ كثيرة بين الإيمان بالله والإيمان بالجزاء أو باليوم الآخر، وجعلهما أساس الإيمان بالعقائد الإلٰهية فى مثل آية سورة البقرة : (ذَلِكَ يُوعظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذٰلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ) . ولا ريب فى أن للإيمان باليوم الآخر وما فيه من العَرْض على الله والجزاء والحساب شأْناً مهمًّا فى عقيدة المتدين ، إذ يجعله ذلك يؤْمن بالعالم الغَيْبىّ كله كما يجعله يُقدم على الأعمال الصالحة ويبتعد عن الأعمال السَّيِّئة ويتقرَّب إلى رَبِّه بعبادته ، فكلٌّ سيحاسَب على أعماله ، وكلٌّ سيلقى جزاءه . وحريٌّ بالعاقل أن يطلب النجاة حتى لا يندم يوم القيامة ولا يتحسر على ما فاته ؛ وحتى لا تكون النار مثواه ؛ فإنها إنما أُعِدَّت للكافر غليظ القلب قاسى الفؤاد قَسْوة الحجارة ، بل إن من الحجارة ما هو أرقّ وأنفع وما يتشقق بالخير ويتفجَّر بالماء ، أما فؤاده فكالحجر الأملس الصَّلْد لا ينْبُت عليه شىء ولا ينتفع به أحد .

﴿ فَذٰلِكَ الَّذِى يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴾ :

معنى يدعُّ يجفو ويردُّ رَدًّا عنيفاً خشناً لا برَّ فيه ولا رحمة . واليتيم من اليُتْم وهو فقد الأب ، وأصل معناه الانفراد ، فهو صبى يتيم أى منفرد عن أبيه ولا عائل له يَعُوله ويرعاه ، ومن ذلك بيت يتيم أى فريد ، ودُرَّة يتيمة أى فريدة ليس لها مثيل . وقد حَثَّ الله ، جلَّ ذكره ، على الرأفة باليتيم وإكرامه والرفق به كما جاء فى سورة الضُّحَى : ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾ وهو ينهى أن يقع عليه قَهْر أو ظلم أو عسف ، ويضع ذلك موضع أمر يجب تنفيذه ، وإلا استحق من يخالفه العقاب الشديد . وأحاديث كثيرة تدعو إلى الرقة لليتيم والعطف عليه والمواساة من مثل قوله عليه السلام : « إن اليتيم إذا بكَى اهتزَّ لبكائه عَرْشُ الرحمن ، فيقول الله تعالى للملائكته : يا ملائكتى مَنْ ذا الذى أَبْكَى هذا اليتيم الذى غَيَّبْتُ أباهُ فى التراب ؟ فتقول الملائكة : ربَّنا أنت أعلم ، فيقول الله تعالى للملائكته : يا ملائكتى اشهدوا : مَنْ أسكته وأرضاه أن أُرضيه يوم القيامة » . ويلتقى بهذا الحديث حديث فى معناه هو قوله صلى الله عليه وسلم : « إذا بكى اليتيم وقعت دموعه فى كفِّ الرحمن فيقول : مَنْ أبكى هذا اليتيم الذى واريت والده تحت الثَّرى ؟ مَنْ أسكته أى أرضاه فله الجنة » . ودعا القرآن والحديث إلى كفالة اليتيم والقيام على تربيته ومئونته حتى يشتدَّ ساعده ويستطيع العيش بمفرده ، يقول ، جَلَّ شأنه ، فى سورة البقرة : ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى ﴾ ، وواضح أنه جمع بينهم وبين الوالدين والأقرباء ، وكأنه يقرر لهم نفس صلة الرحم الوُثْقَى بين الإنسان وأبويه وأهله ، وفى الحديث :

« أحبُّ البيوت إلى الله بيت فيه يتيم مُكْرَم » وفيه أيضاً : « مَنْ ضَمَّ يتيماً فكان فى نفقته وكفاه مئونته كان له حجاباً من النار يوم القيامة ، ومَنْ مَسَحَ برأس يتيم كان له بكل شَعْرَةٍ حسنة » . برٌّ وعطف ، وشفقة ورأفة رائعة لا عجب أن يدعو لها الإسلام دين البِرّ والرحمة والأُخوة والتعاطف ومَد اليد إلى الضعفاء بالعَوْن . وهل أحقُّ بالعَوْن من اليتيم ؟ إنه يستحق كل عون من الغذاء والكساء والمأوى والدواء والتربية والتعليم حتى ينمحى من نفسه الإحساسُ بالحرمان والشقاء والبؤس . ويدعو القرآن دعوة قوية إلى القيام على ماله الذى ورثه عن أبيه وتنميته بالتجارة وغير التجارة دون جور أو ظلم أو تحيُّف شيءٍ من حقه أى شيء مهما كان صغيرًا . وقد توعَّد الله توعدًا شديدًا من يقوم على ماله ويختلس منه لنفسه ، حتى ليجعل عقوبة ذلك مساوية لعقوبة الشرك والكفر بالله ، يقول تعالى سلطانه فى سورة النساء : (إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا) ، ومن أجل ذلك عُدَّ أكل مال اليتيم من الكبائر الموبقات . وفى هذا كله ما يدلّ على موقف الإسلام الكريم من اليتيم الضعيف . وظالمٌ له ، بل لنفسه ، من لا يرحمه ولا يَبَرُّه ، ولا تأْخذه عليه الرأفة والشفقة ، إنه غليظ الكبد لا خير فيه ولا فائدة منه تُرْجَى ، وتلك سمة مميزة للكافر العاتى الذى جَفَّت ينابيع الرحمة من قلبه ، بل لقد انتُزعت الرحمة منه انتزاعاً ، وانتُزعت معها الشفقة وكل المعانى الإنسانية ، وغَدَا كأنه جمادٌ لا قلب له ، جماد يؤْذى كل مَنْ حوله ، حتى اليتيم الكسير الذى لا ناصر له ولا معين ، بل لعله لذلك يزجره زجرًا قبيحاً ويؤذيه ، خِسَّةً ووضاعةً ودناءة مزرية .

(وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ) :

المسكين من السكينة ، وهو الذى أسكنته الحاجة وأذلّته ، وهو مَنْ لا شيء له مطلقاً . ولذلك كان أدنى من الفقير درجة . وقيل بل الفقير هو الأدنى . والحضّ الحث . فهو لا يحث أهله ولا غيرهم على أن يمدوا أيديهم بالمعروف إلى مسكين محتاج . فضلا عن أنه لا يمدّ يده هو ولا يبر مسكيناً ، إنه من الخساسة والدناءة بحيث لا يبر المسكين ولا يجعل غيره يبرُّه . ويتلطف الله ، جَلَّ شأنه ، فيسمى ما يقدَّم للمسكين من القوت طعامه ، كأنه ليس طعامَ من يتفضل به عليه من ذوى اليسار ، بل هو طعامه ، ملّكه له ربه مما فرض على الموسرين من الإنفاق على المعسرين . وكأن هذا الكافر الأثيم يمنع المسكين ويحرمه مما هو حقه فى ماله ومال غيره ، وإنها لسمة تميِّزه وتميز أمثاله من الكفار ، وهى سمة تناقض سمة المسلمين كما جاء فى سورة المعارج : (الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ وَالَّذِينَ فِى أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ) . ويدعو القرآن دعوة واسعة إلى استقرار هذا الحق فى المجتمع الإسلامى حتى ليجعل مال كل فرد فى الأُمة الإسلامية مال الله طالباً إليه أن يبذل منه ما يستطيع كما قال فى سورة النور : (وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللهِ الَّذِى آتَاكُمْ) فمال كل شخص إنما هو أمانة فى يده لربه استخلفه عليه وينبغى أن ينفق منه فى الوجوه التى أمره بالإنفاق فيها وإلا خان الأمانة وارتكب إثماً كبيرًا . وقد أوجب الله الزكاة وجعلها أحد فروض الدين الأساسية فعلى كل مسلم أن يؤدِّىَ من ماله سنويًّا نصيباً مكتوباً عليه للمساكين والفقراء والمصلحة العامة للدولة . وحين نكلت القبائل النَّجْدية عن أداء هذا الفَرْض

الدينى لعهد أبى بكر الصِّدِّيق عَدَّ ذلك ارتداداً عن الإسلام . وحاربها حتى أعطتْ عن يَدٍ . وظَلَّ صَنِيعه مفخرة على الدهر ، إذ ثبت هذا الفرض وتوطَّد رُكْناً من أركان الإسلام . وبذلك أصبح للمساكين والفقراء ولمصلحة الدولة حقوق فى أموال المسلمين يؤدّونها راضين . وبجانب الزكاة دعا الذكر الحكيم إلى البر الدائم بالفقراء والمساكين ، وسماه القَرْضَ الحسن وأضافه إليه كأنه هو الذى يتناوله بيده حَثًّا عليه وحَضًّا كما جاء فى آية سورة الحديد : (مَنْ ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ) ، وهو تلطف من الله العظيم . فى الحثِّ على عَوْن ذوى الحاجة . وقد وضع لذلك آداباً سامية : أن يكون ما يقدمه الموسر للمسكين والفقير من أحبِّ أمواله إلى نفسه كما قال فى سورة آل عِمْران : (لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ) وألا يقصد إلى الردىء فيخرجه كما جاء فى سورة البقرة : (وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْه تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ) أى أنهم لا يأخذونه فى ديونهم وحقوقهم من الناس إلا أن يتساهلوا فى ذلك . وإذا كانوا يكرهونه ولا يرضونه فى حقوقهم فينبغى ألا يفعلوا مع الله فى قرضه مالا يرضونه لأنفسهم . وأدب ثان ندب إليه الله فى قرضه ألا يتبعه صاحب القرض بما يمسُّ شعور المسكين والفقير أىَّ مَسٍّ ، كما جاء فى سورة البقرة : (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى) . والمَنُّ : تعداد ما أسداه المقرض فى مواجهة مَنْ أعطاهم من ماله ونعمه ، والأذى : التَّقْريع والتنديد والتعرض للمسكين بمثل : ما أكثر إلحاحك ؟! ومتى لا نراك ؟ ونحو ذلك . وشدَّد القرآن فى النهى عن هذا الإيذاء الفظيع حتى لتقول آية سورة البقرة : (قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ)

فقد جعل الله تلقى المسكين والفقير بالبشر وطلاقة الوجه والكلمة الطيبة اللينة المؤنسة خيرًا من صدقة يتبعها ما يؤذى أنفسهما أو يؤلمهما بعض الألم. وتلطّف فجعل ما يوجه إليهما من هذا الأذى كأنه موجه إليه ، ولذلك وصف نفسه بالغِنَى والحلم . وأدب ثالث ندب إليه الله فى قرضه أن يكون القرض أحياناً فى السر لا فى العلانية سَتْرًا على المسكين والفقير ، فى سورة البقرة : (إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ) فلا مانع من إظهار الصدقة أحياناً ، ولكن قد يستحبُّ إخفاؤها حتى لا يظن أحدٌ بمُقْرضها أوصاحبها رياءً ولابآخذها تركاً للتعفف وإلحافاً. وكان هذا الحضّ الواسع فى القرآن على الإنفاق فى وجوه البر بالمساكين والفقراء دافعاً لكثيرين من الصحابة أن يكثروا من القروض لله حتى لتذهب بجميع أموالهم ، وحتى ليظلون يقرضون الله كل ما يقع فى أيديهم حتى لو كان قوتاً لهم ولعيالهم ، فهم يؤثرون المساكين والفقراء على أنفسهم وأهليهم مهما اشتدت خَصَاصتهم وحاجتهم كما قال تعالى فى سورة الحَشْر : (وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ). ويصبح ذلك من أهم خصالهم ، وتُرْوَى فيه أخبار طريفة ، من ذلك أن رجلا فقيرًا من الأنصار أُهْدِى إليه رأْس شاةٍ ، فوجَّه به إلى جارٍ له ظانًّا أنه أحوج إليه منه ، فوجَّه جاره بالرأْس إلى جار آخر ، حتى تداوله سبعة بيوت إلى أن رجع إلى صاحبه الأول . ومن ذلك أن حذيفةَ العدوى قال : انطلقت يوم اليرموك ، الذى سُحق فيه الروم سَحْقاً لم تقم لهم من بعده قائمة ، أطلب ابن عمٍّ لى بين شهداء المعركة من المسلمين ومعى شيءٌ من الماء ، وأنا أقول : إن كان به رَمَقٌ من الحياة سقيته ، فإذا أنا به فقلت أسقيك ؟ فأشار برأسه : أنْ

نَعَمْ ، فإذا برجل يقول : آهِ آهِ ، فأشار إلىّ ابن عمى أن أنطلق إليه ، فإذا هو هشام بن العاص ، فقلت : أَسْقيك . فأشار : أنْ نعم ، فسمع آخر يقول : آه آه . فأشار هشام أن أنطلق إليه . فجئت إليه ، فإذا هو قد مات ، فرجعت إلى هشام فإذا هو قد مات . فرجعت إلى ابن عمى فإذا هو قد مات . وإنما أطلنا فى بيان هذا الجانب من خصال المسلم الحق ليتضح كيف جعلت هذه السورة من صفات الكافر الأثيم أنه لا يحث على طعام المسكين . فقد ماتت الرحمة فى قلبه ولم يبق فيه أى معنى من معانى البر بمجتمعه ، فهو عدوه وعدو كل مَنْ فيه من ضعفاء وغير ضعفاء بل هو عدو الله ، ولذلك كان يستحق منه أقصى العقاب ، وفى ذلك يقول ، جَلَّ شأْنه ، فى سورة الحاقة للملائكة : (خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ إِنَّهُ كَانَ لَايُؤْمِنُ بِاللهِ الْعَظِيمِ وَلَايَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ) ؛ إنه سيوضع فى السلاسل والأغلال والأصفاد ، وينزل به أشد العذاب . وقد جعلت الآية الحض على طعام المسكين معادلاً للإيمان بالله فى عظم الجريمة الناشئة عن الجحود والنكران . وكأن طعام المسكين الجائع يكافئ الإيمان بالله فى وجوبه وقدسيته وجلاله .

(فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ . . .) :

هنا يبدأ الحديث فى السورة عن المنافقين الذين كانوا يُعايشون الرسول والمسلمين فى المدينة مُعْلنين إسلامهم مُبْطنين كفرهم متلوِّنين تلوُّن الحِرْباء ، ولا حدَّ لكيدهم ومكرهم ومؤامراتهم واتصالهم السِّرِّىِّ بأعداء الإسلام . وكبيرهم عبد الله بن أُبَىّ ، وله هو وجماعته من المنافقين أمثاله أفاعيل كثيرة

مع الرسول وأصحابه ، من ذلك أنه حين عرف ضخامة جيش قُرَيْش فى غزوة أُحُدٍ انسحب مع رفاقه المنافقين من المعركة قافلاً إلى المدينة آملا فى أن تكون الغلبة والظفر لقريش، وحين حاصرتْ قُرَيْش بجموعها وجموع أحلافها من القبائل النَّجْدية المدينة فى غزوة الأحزاب لم يُسْهم فيها هو وجماعته محتجين بأن بيوتهم فى حاجة إلى الحراسة والحماية . وحاول فى غزوة بنى المُصْطَلِق أن يُحْدث شقاقاً بين المهاجرين والأنصار ، وخاب مسْعاه الأثيم . وكثيراً ما وضع يده فى يد اليهود وكفار قريش عِداءً للإسلام ومقاومة لنوره الغامر . وكأنما أُلْقِيَتْ على بصره وأبصار المنافقين من ورائه غِشاوةٌ حجبتْ عنهم رؤية هذا النور . وكانت آخر محاولة لهم ضد الرسول الكريم ودينه الحنيف أن اتخذوا لهم قبيل غزوة تَبوك مسجداً ظاهره للصلاة وباطنه للفساد ، ولكى يتجمَّعُوا فيه لحَوْك المؤامرات ضد الإسلام . وأوحى الله إلى رسوله بما انعقدت عليه عزيمتهم ، فبمجرد أن عاد من الغزوة أمر بحرقه . وكل ذلك يوضح كيف كان هؤلاء المنافقون أشدَّ خطراً على الإسلام من أعدائه المجاهرين ، إذ كانوا منبثِّين فى الداخل تحميهم كلمة الإسلام التى كانوا يلوكونها بأفواههم دون أن تذعن قلوبهم للدين القَيِّم ، بل لقد كانوا يعادونه ، ويعملون بكل ما يستطيعون على أن تدور عليه الدوائر واضعين ، كلما واتتهم الفرصة ، أيديهم فى أيدى أعدائه من اليهود والمشركين . وبذلك خانوا الأمانة ونقضوا العهد والميثاق ، إذ سالموا الرسول فى الظاهر ، وحاربوه حرباً عنيفة دون هوادة فى الباطن ، فاستحقوا غضب الله وأن يكونوا حَطَباً لجهنم ، وبئس المصير . والويل : العذاب ، وقيل إنه وادٍ فى جهنم ، ورُوِى عن الرسول عليه السلام أنه قال : «عُرِضَتْ علىّ جهنم فلم أرَ فيها وادياً

أعظم من الوَيْل » . والله ، جَلَّ شأنه ، يتوعّد المنافقين بعذابه وأن مأواهم الجحيم ، بل لقد توعدهم بعذاب شديد إذ يقول فى سورة النساء : ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِى الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ وهو الهاوية سُفلى دركات النار ، وتقدم أنها سبع هى جهنم ثم اللَّظَى ثم الحُطَمة ثم السَّعير ثم سقر ثم الجحيم ثم الهاوية . وقد تسمى جميعاً باسم جهنم ، وقد اختار الله لهم الهاوية أو الدرك الأسفل لخياناتهم ونقضهم لأماناتهم . وأصل معنى الصلاة الدعاء ، واستخدمت فى الشرع للدلالة على الفريضة المكتوبة ، وفى حديث أبى هريرة عن الرجل الذى علَّمه الرسول ، عليه السلام ، الصلاةَ حين رآهُ يُخلّ بها ببيان واضح لكيفيتها ، فقد قال له : « إذا قُمتَ إلى الصلاة فأَسْبغِ الوضوء ثم استقبل القِبلة ، ثم كبِّرْ ، ثم اقرأ ما تيسَّر معك من القرآن ثم اركع حتى تطمئنَّ راكعاً ، ثم ارفع حتى تعتدل قائماً ، ثم اسْجُدْ حتى تطمئنَّ ساجدًا ، ثم ارفع حتى تطمئن جالساً ، ثم افعل ذلك فى صلاتك كلها » ؛ ومعروف أنه لا بد فى كل قيام من قراءة فاتحة الكتاب ، وقد سكت الحديث عن حَدِّ القراءة وعن تكبير الانتقالات وعن التسبيح فى الركوع والسجود وعن الجلسة الوُسْطى وعن التشهد وعن الجلسة الأخيرة والسلام . وقَرَّرته أحاديث أخرى كثيرة .

﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ :

السهو نوعان : سَهْوٌ لا عن قَصْدٍ ، وهو معفوٌّ عنه ، وسهو عن إهمال وعدم اكتراث وصاحبه يؤاخذ به . وفى قراءة عبد الله : ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ لَاهُونَ﴾ وفى ذلك ما يؤكد بل يقطع بأن المراد فى الآية السهو

الثانى ، وأيضاً مما يقطع بذلك أنها فى وصف المنافقين كما مرَّ بنا ، وكما جاء عن ابن عباس إذ يقول إن هؤلاء المصلين الساهين هم المنافقون يتركون الصلاة سرًّا ويصلونها علانية ، وهم إن صَلّوها لم يرجوا لصلاتهم ثواباً ، وإن تركوها لم يخشوا عليها عقاباً . ومما يدل على أن الآية فى المنافقين وصفُ هؤلاء المصلين الساهين بقوله تعالى : (الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ) وبذلك يتطابق وصفهم هنا مع وصفهم فى آية سورة النساء : (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللهَ إِلَّا قَلِيلاً) ، بل إن وصفهم هنا أكثر سوءًا إذ أُضيف إليه قوله تعالى : (وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ) . واستدل ابن عباس على أن أصحاب هذا السهو هم المنافقون استدلالاً لغويًّا طريفاً ، إذ قال جَلَّ وعَزَّ : (عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ) ولو أنه قال : فى صلاتهم ساهون لكانت فى المسلمين . وكأن التعبير فى الاية يدل على أن السهو المراد إنما هو سهو تركٍ لها وعدم اكتراث بها . أما السهو فيها فيُراد به السهو الذى لا يقصد إليه صاحبه والذى يدخل فى باب العفو وعدم المؤاخذة لمن يصدر عنه لأنه ليس بنية التَّرْك والإهمال ، وقلما يخلو منه مسلم ، ولذلك أثبت الفقهاءُ فى مصنفاتهم الفقهية باب سجود السهو ، وهو غير السهو المذكور فى الآية والذى لا يتدبر فيه المنافقون صلاتهم ، وكلما سنحت لهم الفرصة أهملوها قاصدين مصرِّين .

(الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ) :

الرِّياءُ فى العبادة ثلاثة أنواع : نوع يقوم على إشراك غير الله معه فى العبادة مع محاولة صاحبه أن يُعْرَف عنه أنه إنما يؤدِّى عبادته لله ،

ونوع يقوم على اتخاذ الشخص سَمْت الزهاد فى العبادة بلبس الثياب القصيرة والخشنة مثلا ليحمده الناس ويجلّوه وينيلوه ما يريده منهم من مال أو غيره ، ونوع يقوم على إظهار الشخص العبادة والمبالغة فيها بتحسينها حتى تراه الأعين . وواضح أن النوع الأول هو المقصود فى الآية ، إذ هو الذى يتلاءم مع المنافقين ، فهم لا يطلبون بصلاتهم زيادة المنزلة فى قلوب الناس كأصحاب النوعين الآخرين من المراءين ، فهؤلاء رياؤهم – وإن كان مذموماً – لا يخرجهم من الإسلام . أما المنافقون فرياؤهم ضرب من الشرك فى عبادة الله ، يشركون معه فى عبادته سواه متظاهرين بأنهم يعبدونه ، تَقِيَّةً ومداراة . وبذلك يتضح أن كل ما أثاره بعض المفسرين فى الآية من المعنيين الثانى والثالث وما يتصل بهما من طلب بعض المسلمين فى صلاتهم السُّمْعة بتحسين السَّمت والعبادة حتى يُثْنى الناس عليهم بالصلاح لا يدخل فى معنى الآية ، لأنها إنما تذكر رياء المنافقين مشيرة إلى ما يداخله من الشرك الأثيم .

(وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ) :

اختُلف فى معنى الماعون ، فقيل هو الزكاة ، واشتقاقه حينئذ من المَعْن وهو الشىء القليل ، لأنها تحدَّد من المال بربع العشر وهو قليل من كثير ، وكأن صاحب هذا القول نظر إلى أن الزكاة تذكر فى القرآن كثيرًا مع الصلاة . وقيل الماعون من العون ، وهو كل ما يعين الإنسان من الآلات وكل ما ينتفع به ويستعار من مثل الفأس والقِدْر والإناء والقدَّاحة والإبرة والغِرْبال . وقيل هو الماء والنار والملح ، وعن السيدة عائشة رضى الله عنها :

« قلت يا رسول الله ما الشيء الذى لا يحلُّ منعه فقال : يا عائشة من أَعْطَى نارًا فكأنما تصدَّق بجميع ما طُبِخَ بتلك النار ، ومنْ أعطى مِلْحاً فكأنما تصدَّق بجميع ما طيّب به ذلك الملح ، ومنْ سقَى شَرْبة من الماء حيث لا يوجد فكأنما أَحْيَا نَفْساً ومنْ أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً » . والله جَلَّ وعَزَّ ، يصور المنافقين فى الآية أشحَّاء بخلاء ، يبلغ من حرص الواحد منهم أن يمنع ما يتداوله الناس بالعارية من أقل الأشياء ، حتى الملح والنار والماء ، وفى الحديث : « لا يجتمع غبار (حرب) فى سبيل الله ودخان جهنم فى جوف عبد أبدًا ولا يجتمع الشُّحُّ والإيمان فى قلب عبد أبدًا » وإذا انتهى الشُّحُّ والبخل الشديد بشخص إلى ما انتهى إليه فى هولاء المنافقين المذمومين بل الملعونين لم يبق فيه خير مرْجُوٌّ ولا نفع مأمول .